سورة الماعون: تحقيق في مكية السورة ومدنيتها

د. أحمد سليمان عوض الرقب*

تاريخ وصول البحث: ٢٠١١/١/٣١م تاريخ قبول البحث: ٢٠١١/٥/٢م

ملخص

سورة الماعون سورة مكيّة خالصة تناولت جانب العقيدة والسلوك والعبادات والمعاملات والعلاقة الوثيقة بينهما، بحيث لا يغني أحدهما عن الآخر، مع بيان أن القاعدة الرئيسة في هذا الدِّين تنطلق من حقيقة الإيمان بالجزاء واليوم الآخر.

Abstract

"AL_Maaeuun" Sura is purely of Mecca origin. It deals with the aspects of belief, behavior, worshipping, transactions, and the close relationship that ties them up, in a way that none of these aspects can do without the others. The major rule in the Islamic religion emanates from the true belief in Verdict and Judgment Day.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد،

فإن الفهم الصائب لآيات التنزيل يغلق كثيراً من أبواب الجهل والتشغيب، ويعمل على تصحيح منهجية التلقي والعمل، ويظهر بجلاء المقاصد العظيمة والسامية لهذا القرآن العظيم.

أسباب اختيار الموضوع:

١. راعني كثيراً قولُ الحق في السورة المذكورة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ إذ لا يخلو أحدٌ من السهو عن الصلاة أو فيها، فوجدتني متحمساً للبحث والتنقيب فيما دار حول السورة بعامة وحول الآية المذكورة بخاصّة من أقاويل وآراء.
٢. الاختلاف الواضح عند مختلف الكاتبين في أسباب نزول السورة، ومكانها، ومناهج فهمها وتفسيرها.
٣. إن السورة على وجازتها تتضمن علاقة وطيدة بين العقيدة والشريعة بين العبادات والمعاملات، بين الظاهر والباطن، وبين الصدق والكذب، فهي ذات دور كبير في صياغة شخصية المسلم الصادق المخلص.

أسئلة الدراسة:

- كيف نفهم قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؟
- هل السورة مكية كلُّها؟؟
- هل السورة مدنية كلُّها؟؟
- هل نصفها مكيّ ونصفها الآخر مدنيّ؟
- مَنْ هم المصلّون الموعودون بالويل؟ هل هم المنافقون؟ هل هم الكافرون المشركون؟ هل هم المقصرون من المسلمين؟
- هل السهوُ عن الصلاة يترتب عليه هذا الويل؟
- هل السورة على نسق واحد من أوّلها إلى آخرها؟

منهج البحث:

تنوعت مناهج البحث عطفاً على المطلوب منه فلا بد من كلّ من:

- المنهج الاستقرائي والتتبعي لما أمكن من مصادر البحث.
- المنهج التحليلي؛ بتحليل ما يلزم من كلماتها وجملها وحروفها.
- المنهج المقارن؛ بإجراء مقارنة بين أقوال المفسرين والترجيح بينها.

* أستاذ مساعد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة العلوم التطبيقية.

الدراسات السابقة:

مما لاشك فيه أن سورة الماعون شأنها شأن أخواتها من سور القرآن كلّه، فقد نالت من الاهتمام والرعاية في كتب المفسرين وما أكثرها الكثير الكثير... ولكني لم أظفر بدراسة مستقلة تُعنى بهذه السورة الكريمة على وجه الخصوص، تناقش من خلالها الأسئلة السابقة خاصةً ما يتعلق بالوعيد الشديد: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ومن المقصود به على وجه الخصوص؟.

أهداف الدراسة:

١- تقديم نموذج لمنهج التفسير المقارن متمثلاً بسورة كاملة؛ هي سورة الماعون.

٢- جمع الفوائد والفرائد واللطائف البيانية المكنوزة في كتب المفسرين والمتصلة بالسورة ونظمها في سلك واحد.

٣- إثبات أهمية سياق السورة وموضوعها في ترجيح ما يتصل بها من قضايا وموضوعات مختلفٍ فيها.

٤- إظهار الربط المحكم في هذا الدين بين العقيدة والشريعة من جهة وبين العبادات والمعاملات من جهة أخرى، وذلك بما تنتظمه تلكم السورة.

خطة الدراسة:

في هُويَّة السورة والمعنى الإجمالي لها:

المطلب الأول: هل السورة مكية أم مدنية؟ أم أنَّ نصفها الأولَ مكيُّ والآخر مدنيُّ؟

المطلب الثاني: علاقتها بما قبلها وما بعدها؟

المطلب الثالث: السورة مدنية من أولها إلى آخرها.

المطلب الرابع: نصفها مكي والآخر مدني.

المطلب الخامس: قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.

المطلب السادس: قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

المطلب السابع: قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

نتائج الدراسة.

تمهيد
في هوية السورة والمعنى الإجمالي لها

أولاً: أسماؤها(١): سميت هذه السورة في كثير من المصاحف وكتب التفسير بـ:

١. الماعون؛ وذلك لورود لفظ الماعون فيها دون غيرها.

٢. وسميت في بعض التفاسير بـ: **(سورة أرأيت)** وهكذا عنونها البخاري(٢) في الجامع الصحيح، وحذا حذوه ابن عطيه(٣) وكذا في الإتقان(٤).

٣. وسميت ب سورة **(الدين)**(٥).

٤. وسورة التكذيب(٦).

٥. وقال البقاعي في نظم الدُّرر تسمى: **(سورة اليتيم).** ولكني عند الرجوع إلى نظم الدرر لم أجده قد ذكر هذا الاسم، ولعّل ابن عاشور اطلع على طبعة أخرى والله أعلم(٧).

- ولي على ما سبق من سْرد أسماء السورة ملحوظات:

الأولى: أنّ أسماء السور ينبغي أن تكون في الدرجة الأولى توقيفية من جهة الوحي الكريم. وعلى هذا فتسميتها بالماعون هو الأشهر.

الثانية: وقد تكون أسماء السورة توفيقية استخلصها العلماء من موضوع السورة؛ كالقول: بأن اسمها **(الدّين)** **(اليتيم)** **(التكذيب)** فالعنوانات الثلاثة موجودة تأسيساً في آياتها.

الثالثة: ليس غريباً أن تسمّى السورة بأولها كما فعل ذلك الإمام البخاري، وابن عطية؛ إذ عنونا السورة بـ: **(سورة أرأيت...)** ومن ذلك سورة (ألم) السجدة مثلاً(٨).

ثانياً: مكان نزولها(٩):

- جمهور المفسرين على أنها مكية.
- وقيل هي مدنية.
- وقيل: نصفها الأول مكي والثاني مدني.

والراجح عندي كما سيظهر بعونه تعالى: أنها مكية قلباً وقالباً.

وتجدر الإشارة إلى أنّها السورة السابعة عشرة من

حيث ترتيب النزول[١٠]؛ فهي إذن من السور المبكرة نزولاً، وهذا ما يدعم مكيتها.

وهي السورة السابعة بعد المئة (١٠٧)[١١] من حيث ترتيب المصحف، وعدد آياتها سبع: ولعّل الإشارة بالعدد (٧) لا تخفى؛ فهي مليئة بالفوائد والمعاني على وجازتها: وبالمناسبة فإن السورة قد خلت من ذكر لفظ الجلالة (الله) ولا عجب فإن الصفات المذمومة الست المذكورة فيها إنما سببها الرئيس عدم ذكر الله وتعظيمه.

المطلب الأول

هل السورة مكية أم مدنية؟ أم إن نصفها الأول مكيّ والآخر مدني؟

إن فصل القول بمكيتها أو مدنيتها يعني الكثير في تحديد معانٍ مهمة في السورة الكريمة، كما أن القول بالتنصيف؛ بمعنى أن النصف الأول مكي والآخر مدني يترتب عليه نتائج مختلفة كما سيتبين ذلك بعونه تعالى.

– على كل حال، لا تخرج أقوال العلماء في هذا الشأن عمّا يأتي:

أولاً: أنها سورة مكية خالصة، وعلى هذا أجمع جمهور المفسرين[١٢].

ثانياً: أنها سورة مدنية كاملة[١٣].

ثالثاً: أن نصفها الأول مكي والآخر مدني[١٤] وبالتحديد من قوله تعالى: **﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾** (مكيّ) ومن قوله ﷻ: **﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾** (مدنيّ).

– وهنا أودّ أنْ أُسجل ملحوظة مهمة؛ وهي: أنه لم يصحّ أي سبب نزول من الأسباب الواردة في تفسير السورة[١٥]. وهذا يزيد الأمر صعوبة من ثمّ لا بدّ من الانتقال من الرواية إلى الدراية، ومن النقل إلى مقتضى العقل والقياس من خلال آيات السورة وأجوائها وألفاظها وجملها وعلائقها بما قبلها وما بعدها.

ولنعرض اولاً لأقوال المفسرين بالشرح والبيان والترجيح بينها بعون الله تعالى:

القول الأول:

إنها مكية خالصة. من قال بهذا القول استند إلى جملة من القرائن والأمور:

أولاً: أسباب النزول الواردة التي لم يثبت منها شيء. فمنهم من قال في قوله تعالى: **﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾** أنها نزلت في[١٦]:

- أبي جهل. وهذا ليس بغريب عن أبي جهل، كما في سورة العلق مثلا **﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى*عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾**[العلق: ٩-١٠].
- ومنهم من قال إنها نزلت في العاص بن وائل. وهذا أيضا ليس مستغرباً؛ فقد كان شديد العداء والتكذيب والبخل... ونزل فيه: **﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾**[النجم ٣٣-٣٥].
- ومنهم من قال إنها نزلت في الوليد بن المغيرة؛ والأمر منه قريب كما في قوله تعالى: **﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾**[المدثر ١١-١٦].

إذن السبب النازل على فرض قبوله يتعلق بشخص تجتمع فيه الصفات المذمومة [**التكذيب، دعّ اليتيم، لا يطعم ولا يحض على طعام المسكين، الغفلة والسهو عن الصلاة، الرياء، منع الماعون**]، ولا يعنينا هنا الشخص أياً كان هو سواء أكان أبا جهل أم العاصِ بن وائل أم غيرهما، اللهم إلا من جهة أنه من أهل مكة لا من أهل المدينة سيراً على من قال بمكيتها هذا أوّلا، أمّا ثانياً: فإن العبرة على كل حالٍ – بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثانياً: روي –وما زلت مع أسباب النزول– على فرض قبولها من أنها نزلت في بعض[١٧] المضطرين للإسلام

في مكة، لم يحققوا فيه، ففتنوا فافتتنوا وربما كان بعضهم يصلي مع المسلمين مدافعةً وحيرةً؛ فقال الله تعالى فيهم: **﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾**. وذكر ابن جزي في التسهيل(١٨): أنها نزلت في رجل أسلم بمكة ولم يكن صحيح الإيمان.

وهذان السببان غير مقبولين دراية من جهات:

- أن الصيغة المذكورة ليست صريحة علاوة على كونها غير صحيحة كما ظهر من قبل ... **(ونزلت في رجل ...)**.
- نزلت في بعض المضطرين؟ ولا أدري أيّ وجه للاضطرار للإسلام في مكة، ولم يكن صحيح الإيمان، ما الذي يجبره والأجواء في مكة في غاية الحساسية والصعوبة وشدة الأذى؟!
- **(ففتنوا فافتتنوا)** كيف يتجه ذلك مع ما سبق وما لحق بأنهم من المضطرين وبأنهم من المصلين؟ هذا لا يستقيم البتة.

ثالثاً: ورجح دروزة(١٩) في التفسير الحديث مكيتها بقرائن أبرزها:

- بوصفها عرضاً عاماً لأهداف الدعوة.
- أسلوب الآيات جاء مطلقاً.
- التوازن والانسجام يعني –بين آيات السورة– وعدم وضوح الحكمة في إضافة آيات قليلة مدنية إلى آيات قليلة مكية، وتكوين سورة قصيرة من هذه وتلك.

رابعاً: وأنا أجزم بمكيتها لأمور كثيرة أهمها:

١) أن السورة من السور المبكرة نزولاً؛ فهي السورة السابعة عشرة نزلت بعد سورة (التكاثر) وقبل سورة (الكافرون)(٢٠)، وكان الصراع محتدماً بين القلة المؤمنة والطغمة الكافرة، وهذا يتضح من ألفاظها من أولها إلى آخرها كما سيظهر بعون المولى سبحانه.

٢) أن القرآن المكي قام على إرساء القواعد الأساسية في العقيدة والشريعة والعبادات والمعاملات ومكارم الأخلاق، وهذا ظاهر تمام الظهور في العديد من السور المكية؛ ومنها سورة الماعون.

٣) أن جاهلية قريش ومن كان حولها كانت شديدة الوطأة على الفقراء والمساكين والأيتام ... وكان الظلم عندهم فاشياً في حقوق اليتامى والميراث... إذ كانوا يعيشون شريعة الغاب القوي منهم يأكل الضعيف ... ولقد جَهِدَ القرآن المكيّ بادئ الأمر، والقرآن المدني من بعد على تقويم السلوك واجتثاث الظلم حيث كان، وممن كان.

٤) أن العرب المشركين منذ القدم يحبون الفخر والخيلاء ومراءاة الخلق. وما خبر غزوة بدر ببعيدٍ؛ إذ قادهم المرض الخبيث (الكبر والرياء)، إلى هزيمة نكراء حين قال شقيهم: نمكث ثلاثا عند ماء بدر نذبح الجزور وترقص لنا القيان و.... حتى تسمع بنا العرب؟؟ نعم؛ ولقد صدق حَدْسُه فلعمري لقد سمعت بهم العرب سماع الخيبة والهزيمة والتبار، وكانوا العبرة لمن بعدهم!!

وهذا العِرْق الدساس ازداد ظهوراً عند زعماء قريش؛ فقد كانوا يتنافسون على السقاية والرفادة طلباً للشهرة والصيت الحسن... بل كان الواحد منهم من أجل الجاه والفخر يكاد يفني ماله وعياله وما الوأد للبنات إلا شعبة خبيثة من هذا المرض العضال المستمكن.

٥) أن كفار قريش كانوا يصلون بصريح قوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾**[الأنفال: ٣٥]، وأن صلاتهم اكتنفها العبث والمكاء والتصدية، فهذا شأنهم من قديم.

٦) وكانوا يطعمون الحجيج ويسقونهم ويحرصون على حسن وفادتهم وإكرامهم **﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** [التوبة: ١٧-١٩].

خلاصة الأمر، إن ما ذكر في السورة في غاية الانسجام مع الواقع القرشي المؤلم... فجاءت تخلخل أركانهم وتستفزّ بقايا الخير في فطرتهم وكيانهم، وتنعى على كبرائهم هذا اللؤم الصادر من التكذيب وعدم التصديق بالجزاء والبعث والنشور.

٧) ألفاظ السورة من أولها إلى آخرها مكية خالصة، وأبدأ بها واحدة واحدةً:

أ- **أرأيت:** هذا الأسلوب من الاستفهام المقترن بـ (أرأيت) إنما هو أسلوب مكي خالص، فقد ذكر في سبعة مواضع من القرآن الكريم[٢١].

- **﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾**[الكهف: ٦٣].
- **﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾**[مريم:٧٧].
- **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾**[الفرقان:٤٣].
- **﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾**[النجم: ٣٢].
- **﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾**[العلق: ٩-١٠].
- **﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾**[العلق: ١١].
- **﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾**[العلق:١٣].

ب- **يدعُّ:** لم ترد إلا في سورتين[٢٢] إحداهما: في الماعون (**يدعُّ**) والأخرى في سورة (الطور: ١٣) **﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾**.

ج- **اليتيم:** ذكر اليتيم بصيغة الإفراد سبع مرات كلها في السور المكية[٢٣]. ووردت بصيغة التثنية مرة واحدة في سورة الكهف وهي مكيّة، بينما ذكرت بصيغة الجمع (يتامى) في السور المدنية فقط، ولا غرابة في ذلك فقد ظهرت مشكلة اليتامى أكثر في مجتمع المدينة بعد فرض الجهاد والقتال. وسبحان الله الحكيم العليم! وبالمناسبة، الحديث عن حب أهل الزعامة من قريش للمال وما يترتب عليه من البخل والشح والظلم في الميراث وغيره ظاهر في السور المكية وبخاصّةً في الجزأين الأخيرين من القرآن الكريم:

﴿كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾[الفجر: ١٧-٢٠] وهي سورة مكية.

د- أمّا لفظ **المسكين** في القرآن الكريم فقد جاء بصيغة الإفراد في أحد عشر موضعاً[٢٤] كلّها مكيّه خلا موضعين فقط هما أقرب إلى الجمع منهما إلى الإفراد وفي سياق تشريعي محض.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة:١٨٤].

﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[المجادلة: ٤].

بينما جاءت صيغة الجمع (مساكين) في اثني عشر موضعاً[٢٥] كلها مدنية سوى واحدة في سورة الكهف (٧٩) **﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾** ولا غرابة أيضا فإن مجتمع المدينة مجتمع التكافل والرحمة والزكاة... الخ.

- وسورة البلد تكاد تكون من أولها إلى آخرها معالجةً هذا الأمر: **﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالا لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾** إلى آخر السورة الكريمة.

- سورة الليل (٥-١١): **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * أَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾**.

- والتوجيه الرائق للحبيب ﷺ في سورة (الضحى: ٩-١١): ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.
- سورة العلق (٦-٧): ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾.

وسورة العاديات (٦-٨): ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ والإشارة واضحة في سورة التكاثر من اسمها ومطلعها: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾.

- وسورة الهمزة من أولها إلى آخرها: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.
- وسورة قريش والأمر فيها ظاهر من الامتنان والإنعام عليهم: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ وسيأتي مزيد بيان لهذه السورة في موضعه خاصّةً بعون الله تعالى.
- أما جزء تبارك فانظر مثلاً سورة المدثر، ففيها أكثر من إشارة أشدها ظهوراً فيما نحن بصدده: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[المدثر: ٤٣-٤٤].

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[الحاقة: ٣٣-٣٤].

وسورة القلم الأمر فيها واضح: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾[القلم: ٧-١٤].

هـ- **يحضُّ** هذا اللفظ الكريم مكيّ محض ورد في القرآن المكي فقط في ثلاثة مواضع[٢٦].

- ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[الحاقة: ٣٤].
- ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[الماعون:٣].
- ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[الفجر: ١٨].

و- **(فويلٌ) (وويل)**: هو أسلوب مكيٌّ بارز؛ فقد ورد هذا اللفظ الكريم في ستة وعشرين[٢٧] موضعاً كلّها مكية إلا ثلاثة مواضع، جميعها في سورة البقرة والويل والوعيد فيها لليهود وهم محتاجون إلى أسلوب القران المكي لتقريعهم والتشديد عليهم.

وغالب المواضع جاءت بالويل للمكذبين؛ إذ وردت صراحة في اثني عشر موضعاً[٢٨] وجاء الويل موصولاً للكافرين في أربعة مواضع، وللظالمين في موضع واحد، وللمشركين في موضع واحد، ولكل افاك أثيم في موضع واحد والقاسية قلوبهم عن ذكر الله في موضع واحد[٢٩].

ويجمع الأوصاف السابقة الكفر والكذب، أما الويل للمصلين فلم يرد إلا في موضع واحد[٣٠].

قال ابن قيم الجوزية[٣١]: (والوعيد): اطّرادٌ في القرآن للكفار؛ كقوله تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[فصلت:٧].

وقوله: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[الجاثية: ٧].

وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[إبراهيم: ٢].

إلا في موضعين وهما ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ و﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ تعلّق الويل بالتطفيف وبالهمز واللمز وهذا لا يكفر به بمجرده؛ فويل تارك الصلاة إما أن يكون ملحقا بويل الكفار أو بويل الفساق، والحاقةُ بويل الكفار أولى لما صح عن سعد بن أبي وقاص في هذه الآية أنه قال: لو تركوها كانوا كفاراً ولكنهم ضيعوا وقتها.

وليس السهو عنها تركها وإلا لم يكونوا مصلين وإنما السهو عن واجبها: إما عن الوقت كما قال ابن مسعود وغيره، وإما عن الحضور والخشوع، والصواب أنه يعم النوعين فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة ووصفهم بالسهو عنها فهو السهو عن وقتها الواجب أو عن إخلاصها وحضورها الواجب، وكذلك وصفهم بالرياء ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء؛ قالوا: ولو قدرنا أنه السهو عن واجب فقط فهو تنبيه على التوعد بالويل على سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولى لوجوه أحدها. (أن الوقت يسقط في حال العذر وينتقل إلى بدله، والإخلاص والحضور لا يسقط بحال ولا بين الصلاتين للشغل المانع من فعل أحدهما في وقتها بلا قلب ولا حضور؛

كالمسافر والمريض وبالجملة: مصلحة الإخلاص والحضور وجمعية القلب على الله في الصلاة أرجح).

ز- **المصلين:** أمّا (**المصلين**) فلم ترد في القرآن المجيد إلا في ثلاثة مواضع؛ ثلاثتها مكية(٣٢):

- ﴿ **إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾ [المعارج: ٢٢، ٢٣].
- ﴿**قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ**﴾[المدثر: ٤٣].
- ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾[الماعون: ٥، ٤].

ح- **صلاتهم:** ورد هذا اللفظ الكريم في ستة مواضع من القران الكريم(٣٣) كلها مكية عدا موضع واحد في الأنفال؛ وهو يتحدث عن فريق من أهل مكة ﴿**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً**﴾[الأنفال: ٣٥].

ط- **ساهون**(٣٤): لم ترد إلا في موضعين كلاهما مكي في سورتين مكيتين:

- ﴿ **قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ**﴾ [الذاريات: ١٠، ١١].
- ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ [الماعون: ٤، ٥].

والخراصون الكذابون والمرتابون (في غمرة ساهون) هم في الكفر والشك غافلون لاهون.

وهنا يلفت الراغب(٣٥) انتباهنا إلى ملحوظات مهمة أوجزها بما يأتي:

- كل موضعٍ مدح الله تعالى بفعل الصلاة أو حثّ عليه ذُكر بلفظ الإقامة نحو ﴿**وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ**﴾ [النساء: ١٦٢].

﴿**وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ**﴾[البقرة: ٢٧٧] ولم يقل: (المصلين) إلا في المنافقين نحو قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى**﴾[التوبة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾[الماعون: ٥٤] وأنا مع الراغب في الأولى، ولست معه في الثانية كما سيظهر بعونه تعالى.

- خصَّ لفظ الإقامة تنبيهاً على أن المقصود من فعلها توفيةُ حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بهيئتها فقط، ولهذا قيل: إن المصلين كثير والمقيمين لها قليل.

- وفَّسر الراغب قوله: ﴿**لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ**﴾[المدثر: ٤٣] أي من أتباع النبيين.

- وقوله تعالى: ﴿**فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى**﴾ جاء تنبيهاً على أنه لم يكن ممن يصلي أيْ؛ يأتي بهيئتها فضلاً عمن يقيمها.

- أما قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾[الأنفال: ٣٥] فتسمية صلاتهم مكاء وتصديه تنبيه على إبطال صلاتهم، وأن فعلهم ذلك لا اعتداد به بل هم في ذلك كطيور تمكو وتصدي، فلا فائدة مما يفعلون.

ونقل ابن كثير وغيره(٣٦) عن ابن عباس: أن قريشاً كانت تطوف البيت الحرام عراة، تصفّر وتصفق. ونقل كذلك عن ابن عمر أنه قال: كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون.

- وعن عكرمة أنهم كانوا يطوفون بالبيت على الشمال.

- وأحسن مجاهد وكذلك الزهري حينما ذكرا أنهم كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ في صلاته واستهزاء بالمؤمنين(٣٧).

- وأحسن ابن كثير(٣٨) حينما ذكر بإزاء ذلك قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾ [التوبة ١٧-١٨].

- ولاحظوا النص الحكيم. (**وأقام الصلاة**) ولم يقل -وله الحكمة والعلم سبحانه- وصلّى.

- واختير في وصفهم بدل الكناية عنهم بالضمير، وكان الظاهر أن يقال: فويل لهم، ولكن عُدِل عن هذا لبيان بعض أعمالهم ذوات المظهر الدينّي الموروث عن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، التي يعملونها رئاء

الناس؛ كالصلاة على ما ورثوا من دين إسماعيل التي خلطوا بها شركياتهم، وأعمالهم الجاهلية الكثيرة: كالطواف حول البيت والسعي بين الصفا والمروة والحج في موسمه وكالعمرة(٣٩).

- وقد كان القرشيون يقولون: نحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية؛ يفتخرون بهذه الأعمال من العبادات على سائر العرب.

- تساؤل: كيف يؤدي المشركون الذين يكذبون بالدين وهم على شركهم وتكذيبهم عبادات كالصلاة بركوع وسجود على ما ورثوا من دين إسماعيل؟!

والجواب: أنهم يفعلون ذلك، مراعاة للناس؛ للمحافظة على مكانتهم الدينية بين العرب من ثَمَّ تميزهم عن سائر القبائل(٤٠).

على ضوء ما سبق أرجو أن استخلص ما يأتي:

١. أن ثمة فرقاً جوهرياً بين مقيمي الصلاة والمصلين، بين من صّلى ومن أقام الصلاة، وأن العبرة بإقامتها لا بمجرد الأداء.

٢. إن مشركي مكة كانوا يطوفون بالبيت عراة، وكانوا كذلك يصلون بصورة وهيئة تختلف تماماً عن صلاة المسلمين.

٣. أنهم كانوا في أثناء صلاتهم يشغّبون على النبي ﷺ وأصحابه ويستهزئون بهم وبصلاتهم بل ويصدونهم عن المسجد الحرام. وهذا فعل قبيح شائن يستحق الويل والثبور المذكور في سورة الماعون: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ...**﴾ وكان هذا وقت اشتداد الصراع بين الثلة القليلة المؤمنة والطغمة الكافرة بادئ الأمر. وقد بينت من قبل أن سورة الماعون من السور المبكرة نزولاً؛ فهي السابعة عشرة من حيث ترتيب النزول كما مَرّ من قبل. وأعود فأقول ما أشنع وما أقبح صورة من يصفق ويصفر ويستهزئ ويلمز ويغمز، يقصد بذلك مصلياً أو مجموعة من المصلين الخاشعين الواقفين أمام ملك الملوك سبحانه... ألا يستحق هذا الويل والويل؟ بلى يا ربّ.

٤. فبدلا من أن ينشغلوا في صلاتهم بالخشوع والخضوع ينشغلون عن صلاتهم في السهو واللهو المؤدي إلى إيذاء النبي ﷺ وأصحابه.

ي- ﴿**الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ**﴾: يراءون وردت في المصحف الشريف بهذه الصيغة ﴿**يُرَاؤُونَ**﴾: مرتين فقط(٤١).

الأولى: مدنية في سورة (النساء ٤٢): ﴿**يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ وهي في المنافقين.

الثانية: مكية في سورة (الماعون: ٥): ﴿**الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ**﴾ وما يتصل بهذه الكلمة أيضا (رئاء) حيث جاءت في ثلاثة مواضع(٤٢) كلها مدنية لكن آخرها يتحدث عن مشركي قريش:

١. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٦٤] والخطاب فيه تحذير للمؤمنين، ولاحظ ارتباط الرياء بـ: ﴿**وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ وارتباطه بالكفر في نهاية الآية: ﴿**وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾، كما أن السياق في إطار الزكاة والصدقة.

٢. ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا**﴾[النساء: ٣٨] ولاحظ مرة أخرى الاقتران بين الرياء وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر، والسياق في الإنفاق كذلك.

٣. ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾[الأنفال: ٤٧] يقول ابن كثير(٤٣): ينهى الله تعالى المؤمنين من التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطراً أي؛ دفعاً للحق، (ورئاء الناس) هو المفاخرة والتكبر عليهم كما قال أبو جهل. لمّا قيل له إن العير قد نجا فارجعوا، فقال: والله لا نرجع أبداً

حتى نرد ماء بدر. ونذبح الجزور، ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكانتنا فيها يومنا أبدا، فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لمّا وردوا ماء بدر وردوا به الحِمام، وركموا في أطوار بدر مهانين أذلاء، صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي.

إذن، قادهم الرياء إلى شرٍّ عاقبة وأسوأ هزيمة، ومن سمّع الله به.

وهكذا، فإني أفهم قول الحق سبحانه (فويل) ههنا فهماً يتصل بهزيمتهم وأي ويل قد حاق بهم في بدر وقد حزت حلاقيم الرؤوس منهم، ونكست راياتهم ولبسوا ثوب الحداد أياما، وأرغمت أنوفهم المتورمة التراب.

إذن، حَمْل قوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ *الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ**﴾ على التهديد والوعيد في الدنيا والآخرة، أكثر دلالة واتساقاً وانتظاماً.

ق- ﴿**وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾: (يمنعون) بهذه الصيغة وبياء المضارعة لم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة[٤٤] في سورة الماعون، والتعبير بالمضارعة هنا تشخيص لهذه الصورة القبيحة البشعة من البخل والمنع وقبض اليد.

- بينما وردت بصيغ مختلفة سبع عشرة مرة[٤٥] كلها في سور مكية عدا ثلاثة مواضع جاءت في ثلاث سور مدنية. لكن اللافت للنظر أن صيغ المبالغة من (منع) جاء في السور المكية فَحَسْب، وهي بالترتيب بحسب المصحف الشريف.

١. (**منّاع**) وردت في موضعين:

الأول: في سورة (ق: ٢٥): ﴿**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ**﴾.

الثاني: في سورة (القلم ٨-١٢): ﴿**فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**﴾.

٢. (**منوعاً**) ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾[المعارج ١٩-٢١].

وانظر ارتباط المنع بالكفر والتكذيب كما في سورة الماعون تماماً.

إذن، القرآن المكي بالنسبة لهذا المرض (الشح والبخل) نبّه على أمرين:

الأول: أن هذا المرض مستأصل عند القوم ظاهر لا يقتصر على أحد، وهذا ما نفهمه من صيغة المبالغة.

الثاني: تشخيص الصورة القبيحة المنفرة لمن يتعاطى هذا السلوك الشائن، وما يحمله هذا التشخيص من التوبيخ الشديد لسادة قريش ممنّ يسلك هذا المسلك، فضلاً عمّا في ذكر هذه الصورة من فضحهم والاستخفاف بهم وإسقاطهم من محل الاعتبار.

وهذا كله منسجم تمام الانسجام مع القرآن المكيّ في بواكير الوحي، وهو ما قامت به سورة الماعون خير قيام.

ل- (الماعون) هذه الكلمة لم ترد في القران الكريم إلا مرة واحدة[٤٦]، وسأفصل فيها القول تالياً -إن شاء الله تعالى-.

المطلب الثاني
علاقتها بما قبلها وبما بعدها

يقول الحق سبحانه: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾[الزمر: ٢٣] ويقول سبحانه: ﴿**الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[هود: ٢] عليه، فإن القرآن يعطف بعضه على بعض، ويأخذ بعضه بأعناق بعض، وهذا مظهر من مظاهر إعجازه ..... بل هي درجة عالية من درجات الإعجاز القرآني تبدأ ولا تنتهي.

ومن هنا سنفيد من هذه العلائق بقدر الضرورة دون التفصيل بما يؤكد أن السورة مكية قلباً وقالباً، ومنه سبحانه وحده العون والتوفيق.

- يسعفني هنا الإمام البقاعي[٤٧] قال: لما أخبر ﷻ عن فعله معهم يعني ما في سورة الفيل. من الانتقام

ممن تعدى حدوده منهم، ومن الرفق بهم بما هو في غاية الحكمة، فكان معرفاً بأن فاعله لا يترك الناس سدى من غير جزاء وأمرهم في آخر السورة بشكر نعمته بإفراده بالعبادة، وعرّفهم أول (الماعون) أن هذا لا يتهيأ إلا بالتصديق بالجزاء الحامل على معالي الأخلاق الناهي عن مساوئها، ووصف الكذب به بأوصاف هم منها في غاية النفرة، وصوره بأشنع صورة بعثاً لهم على التصديق وزجراً عن التكذيب.

– ونقل البقاعي كلاماً نفيساً عن أبي جعفر بن الزبير ألخص ما أمكن منه للأهمية(٤٨):

١. تضمنت السورة المتقدمة الوعيد لما انطوى في جبلة الإنسان كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾[العاديات: ٥]، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[العصر: ٢]. ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[الهمزة: ٣].

٢. وما يترتب على ما سبق من الصفات من الشغل بالتكاثر: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾[التكاثر: ١] والطعن على الناس بالهمز واللمز ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[الهمزة: ١] والاغترار المهلك، أصحاب الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[الفيل: ١].

٣. ثم أتبع ذلك بصفات أُخَرَ في سورة الماعون من مثل: دعِّ اليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين، واللهو والسهو عن الصلاة، والرياء، ومنع الماعون، وبينت السورة أن هذه الصفات هي صفات المكذب بيوم الدين ولا ينتظر الجزاء والحساب.

– فالحذرَ الحذرَ من هذه الصفات؛ فإن دعّ اليتيم من الكِبْر الذي أهلك أصحاب الفيل، وعدم الحض على إطعامه إنما هو من فعل البخيل الذي يحسب أن ماله أخلده، والسهو عن الصلوات من ثمرات إلهاء التكاثر والشغل بالأموال والأولاد، وهكذا تلتحم السور كأنما هي جسد واحد وقلب واحدٍ.

وبالمناسبة، حاول ابن الزبير السير في اتجاه أن السورة مدنية وأنها من أولها إلى آخرها في شأن المنافقين أو المقصرين من المسلمين ممّن تَشبه فيهم بعض خصال المنافقين، وقد ناقشت هذا الأمر من قبل هذا أولاً.

أمَّا ثانياً؛ فقد أفدْتُ من كلام ابن الزبير –رحمه الله– في إطار المناسبة بين السورة وما قبلها من السور القرآنية منها فأفاد وأجاد.

ثم عاد الإمام البقاعي وأكد مكية السورة من خلال المناسبة بين آياتها فقال ما ملخصه(٤٩):

– ولما كان المراد بهذا الجنس –على اعتبار أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب– وكان من المكذبين من يخفي تكذيبه، عرّفهم بأمارات تنشأ من عمود الكفر الذي صَدّر به ويتفرع منه.

– وتبيّن بهذا أن علاقة التكذيب بالبعث إيذاء بالضعيف والتهاون بالمعروف.

– وبعد أن ذكر حاله مع الخالق، أتبعه حاله مع الخلائق إعلاماً بأن كلاًّ منهما دَالّ على خراب القلب، وموجب لمقت الرب، وأعظما الإهانة والكرب، وإن المعاصي شؤم مهلك تستتبع الويل والهلاك (فويل).

– إن من أضاع الصلاة فهو لما سواها أضيع، ولن نكون سبباً للنجاة إذا صاحبَها السهو والغفلة والرياء فحذار من الاغترار بأدائها هكذا.

– وهكذا بلغوا نهاية التكذيب باستهانتهم بأعظم دعائم الدين واستعظامهم لأدنى أمور الدنيا، وهذا الآخر كما ترى هو الأول لان الذي جرّ إليه هو التكذيب. ثم التفت الإمام البقاعي إلى علاقتها بما بعدها (الكوثر) فقال:

– ومن منع هذه الأشياء التافهة كان جديراً بأن يمنع من ورود الكوثر

– ولما كانت سورة الدين يعنى الماعون بإفصاحها ناهية عن مساوئ الأخلاق، كانت داعية إلى معالي الشيم، فجاءت الكوثر لذلك.

– وختمت الدين (الماعون) بأبخل البخلاء وأدنى الخلائق وابتدأت الكوثر بأجود الجود والعطاء لأشرف الخلائق فكان كأنه قيل: أنت يا خير الخلق غير متلبسٍ بشيء مما نهت عنه تلك المختتمة بمنع الماعون.

- وهكذا جاءت سورة الكوثر بعدها تؤكد مكيتها جزماً على منهج القرآن من التسرية على قلب الحبيب بعد تعرضه لأذى كفار قريش، فجاءت الكوثر كالبلسم الشافي والماء البارد للظمأ، فما ذكر من صفات قبيحة للكافرين في سورة الدِّين يستفزُّ الحليم ويحَرّك الجلمد الساكن.

المطلب الثالث
السورة مدنية من أولها إلى آخرها

احتجّ هذا الفريق بجملة من الأمور والقرائن:

١. سبب النزول المتصل بعبد الله بن أبي بن سلول، أو في منافق لم يسموه.

٢. وورد أنها نزلت في المنافقين الذين كانوا يراءون المؤمنين بصلاتهم ويمنعونهم العاريّة.

٣. أنّ ذكر الصلاة والسهو عنها والرياء فيها والماعون على رأي من فسّره والزكاة إنما كان هذا كله في المرحلة المدنية.

- ولي ملحوظات على ما سبق من الحجج والقرائن:

١) أنه لم يصح أيّ من أسباب النزول المتصلة بالسورة ومنها هذان السببان.

٢) أن سبَبَيْ النزول الواردين، على فرض صحتهما، فهما غيرُ صريحين في السببية، وعليه لا يعتّد بهما تأسيساً للسببية ههنا.

٣) أن المنافقين يشتركون مع الكافرين في السهو عن الصلاة.. وإن كان السهو عند المنافقين في الصلاة لا عنها أظهر وأوضح... فالمنافقون كانوا يصلّون صلاة المسلمين ركوعاً وسجوداً وليس الشأن كصلاة المشركين كما ظهر من قبل.

٤) أن صفة الرياء لم تكن في المرحلة المدنية حسب بل ظهرت بوضوح عند عتاولة قريش في العهد المكي كذلك، كما ظهر من قبل.

٥) أن تفسير الماعون بالزكاة فقط فيه نظر؛ فالراجح أن الماعون هو سائر ما ينتفع به الخلق مما يأتي عفواً سهلاً.

المطلب الرابع
نصفها الأول مكي والآخر مدني

أما النصف الأول من قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ إلى قوله ﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ فأصحاب هذا القول متفقون تماما مع الفريق الأول القائل بمكية السورة كاملة، ولكنهم خالفوا في النصف الآخر واتفقوا مع الفريق الثاني خاصَة فيما يتصل بالصلاة والسهو عنها والرياء ومنع الماعون، فهذه مرجحات عندهم بمدنية النصف الآخر من السورة.

ويسجل لهذا الفريق محاولة التوفيق بين القولين السابقين، ويطرأ على قولهم هذا ما ذكرته قبل قليل ... وسيزداد الأمر وضوحاً حينما نبدأ ببيان وظيفة الفاء في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾.

المطلب الخامس
﴿أرءيت الذى يكذب بالدين﴾

لِمن الخطاب؟ الظاهر أن الخطاب للرسول ﷺ، وقيل الخطاب لكل عاقلٍ. والصواب، والله أعلم: أن الخطاب جاء للحبيب ﷺ ابتداء، ويصلح لكل عاقل.

﴿الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ عامٌ لكل من كان مكذباً بيوم الدّين استناداً إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن أهل التفسير ذكره أن ﴿الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾، مختصٌ بشخص معين وعلى هذا ذكروا أشخاصا: (أبو جهل، العاص بن وائل، أبو سفيان حرب بن أمية، الوليد بن المغيرة، عبد الله بن أبي بن سلول)[٥٠] وقد بيّنت ما يتصل بذلك سابقاً وفائدة تحديد الشخص معرفة موقف الناس من الدعوة الإسلامية، وتبقى العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

- ما المقصود بالدّين؟ قال ابن فارس[٥١]: الدال والياء والنون أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها، وهو جنس من الانقياد والذل فالدين الطاعة والدين يوم الحكم بين الناس يوم القيامة والدين: الحساب والجزاء وأي ذلك كان فهو أمرٌ ينقاد له، وذكر فيه أقوالاً:الإسلام؛ ويدعم هذا قول الحق في: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[آل عمران: ١٩]:

١. الحساب والجزاء.

٢. القرآن

٣. حكم الله.

والجمهور من المفسرين(٥٢) على المعنى الثاني؛ وذلك أن من ينكر الإسلام قد يأتي بالأفعال الحميدة، ويحترز عن مقابحها، إذا كان مقراً بالقيامة والبعث، أمّا المقدِم على كلِّ قبيح من غير مبالاة فليس هو إلا المنكر للبعث والقيامة.

وهذا حق لا مراء فيه وهو ما كان عقبةٍ كأداء عانى منها رسول الله ﷺ أشدَّ المعاناة في دعوته لأهل مكة: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[ق: ٣].

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾، ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

بعد أن ذكر سبحانه المكذب فيما سبق أورد له وصفين:

الأول : من باب الأفعال: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾.

الثاني: من باب النزول: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

(فذلك) ما وظيفة الفاء؟ قيل:

١. جواب شرط مقدّر. أي: طلبت علمه فذلك.

٢. سببية. أي: لمّا كان كافراً مكذباً كان كفره سبباً لدَعِّ اليتيم، وعدم الحَضّ على طعام المسكين.

٣. عاطفة: **(فذلك)** على **(الذي يكذب)**:

- إما عطف ذات على ذات، أو صفة على صفة ويكون جواب أرأيت محذوفا لدلالة ما بعده عليه، كأنه قيل: أخبرني من.....

وإما تقول فيمن يكذب الجزاء وفيمن يؤذي اليتيم ولا يطعم المسكين أنعْمَ ما يصنع؟!

قال ابن عاشور(٥٣): وهذا – يعني العطف يفيد تشويه إنكار البعث بما ينشأ عن إنكاره المذامّ وفي ذلك تحذير للمسلمين من الاقتراب من إحدى هاتين الصفتين، بأنهما من صفات الذين لا يؤمنون بالجزاء، والتعبير باسم الإشارة: (فذلك الذي) فيه مزيد من الحَطّ والازدراء والتحقير لصاحب هذه الأفعال الشنيعة.

- كما أن إقحام اسم الإشارة واسم الموصول بعد الفاء زيادة تشويق حتى تقرع الصلةَ سمع السامع فتتمكن منه كمال تمكّن.

والإشارة إلى الذي يكذب بالدين باسم الإشارة لتمييزه أكمل تمييز، حتى يتبصر السامع فيه وفي صفته، أو لتنزيله منزلة الظاهر الواضح بحيث يُشار إليه.

- وانظر أيضاً تكرُّرَ المضارعة في الأفعال ههنا: **[يكذب، يدع، ولا يحض].**

تشخيصا لصور ثلاث في غاية التشابه والبشاعة، و إشارة إلى أن هذه الأفعال القبيحة لها طابع التكرار والديمومة فهم في غاية الإصرار والتصميم.

- وأود هنا أن أؤكد على قضية مهمة ينبغي أن يتنبه لها المربون، وهي أن الإيمان بالبعث والجزاء هو الوازع الحق الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة، فتبادر إليها بحسب قوة هذا الوازع أو ضعفه إقبالاً أو إدباراً... وهذا ما حَرَص القرآن المكي على زرعه واستنباته في تربية الجيل الأول، فأنتج عمالقة التاريخ وتاريخ العمالقة غير أنهم موحدون مؤمنون.

- (يَدُعُّ اليتيم) المعنى أنه يدفعه بعنف وجفوة وقسوة؛ كقوله في فعل ملائكة العذاب بالكفار يوم القيامة: **﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً﴾**[الطور: ١٣] والدَعُّ قد يكون على صور منها:

١. دفعه عن حقه وماله بالظلم.

٢. ترك المواساة معه فلا يواسيه ولا يتلطف به.

٣. زجره وضربه والاستخفاف به.

- ثم قال الفخر الرازي(٥٤): (واعلم أن في قوله (يَدعّ) بالتشديد فائدة وهي أنه يعتاد ذلك فلا يتناول الوعيد من وجد فيه ذلك وندم عليه. وهناك قراءة لا بأس من الاستئناس بها (يَدَعُ اليتيم) أي يتركه والمعنى أنه إذا صنع وليمةً لم يَدْعُ لها اليتيم بل يتركه ويهمله، وقرئ: (يدعو اليتيم) أي يدعوه رياءً ثم لا يطعمه؛ وإنما يأتي به للاستخدام والقهر والاستطالة).

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ما سرُّ التعبير بـ (طعام، دون الاطعام)؟

١. للإشعار بأن المسكين كأنه مالك لما يعطى له، فهو بيان لشدة الاستحقاق، وهذا على فرض مضاف مقدر أي بذل طعام مسكين.

٢. وفيه إشارة للنهي عن الامتنان على ما ذكره الألوسي وغيره.

وذكر بعضهم أن الطعام هنا بمعنى الإطعام، والمعنى فيه ظاهر قال أبو السعود(٥٥): وإذا كان حال من ترك حَثَّ غيره على ما ذكر، فما ظنك بحال من ترك ذلك مع القدرة؟

- وقد ذكرت من قبل هذا الاقتران بين التكذيب بالدِّين ودَعّ اليتيم وحرمان المسكين. قال الامام الزمخشري(٥٦) في هذا المقام: جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف يعني: أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد، لخشي الله تعالى وعقابه، ولم يُقدم على ذلك، فحين أقدم عليه علم أنه مكذب، فما أشدّه من كلام! وما أخوفه من مقام ! وما أبلغه في التحذير من المعصية.
- وما فائدة النهي (**ولا يحض**)؟ ولا يحض مَنْ؟

يحتمل أنه:

١. لا يحض نفسه على طعام المسكين فما أبخله وما أقسى قلبه؟!

٢. لا يحض غيره على إطعام ذلك المسكين فهو لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً، وهنا يطرح الفخر الرازي(٥٧) سؤالاً جديراً بالانتباه. يقول: لم لَمْ يَقُلْ: ولا يطعم المسكين؟ الجواب: إذا كان الحال أنه منع اليتيم حقه، فكيف يطعم المسكين من مال نفسه، بل هو بخيلٌ من مال غيره؟ وهذا هو النهاية في الخسّة، فلأن يكون بخيلاً بمال نفسه أولى.

ما سرُّ التعبير (ولا يحض) دون الاطعام مباشرةً؟

والأمر في غاية الظهور إذ إن هذا المكذب لا يحض على الطعام فهل من الممكن أن يطعم؟!

فكنّي بنفي الحضّ عن نفي الإطعام؛ وذلك لأن الذي شحّ بالحضّ على الإطعام هو بالإطعام أشحّ.

المطلب السادس: ﴿فوَيلٌ للمُصَلِّينَ * الذِينَ هُمْ عَن صلاتِهِمْ ساهُونَ﴾

ما فائدة الفاء في قوله: (فويلٌ)؟

أ. **العطف للسببيه:**

العطف المذكور فيها للسببية وهذا الوجه يقتضي اتحاد المصلين والمكذبين وعليه قيل المراد بهم المنافقون وورد هذا عن ابن عباس ومجاهد والإمام مالك. ويدل عليه كما قال أبو حيان(٥٨) قوله تعالى في نفس السورة **﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾**.

– ويصح أن يراد بالمصلين على الاتحاد كذلك المكلفون بالصلاة ولو كانوا كفاراً غير منافقين، وبسهوهم عن الصلاة تركها بالكلية.

والمعنى أن الدعاء عليهم بالويل متسَببٌ عن هذه الصفات الذميمة، ولكن ما غرض وضع الظاهر وهو (المصلين) موضع المضمر؟ والجواب:

١. إيذان بأنهم مع التكذيب وما أُضيف إليه –يعني من الصفات المذمومة– ساهون عن الصلاة وغير مكترثين بها.

٢. إظهار (المصلين) ووصفهم بـ **﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾**، فشأنهم شأن الساهي اللاهي يلهو ويلعب فيا لهم من قوم غفل؟!

٣. وجدير بالذّكر أنّ، ما سبق من العطف والسببية يحتمل مكية السورة أو مدنيتها كاملة، والفرق أننا إذا قلنا بمكيتها كاملة فالمقصود الكفار اللاهون الغافلون من أهل مكة، كما بينت ذلك من قبل، وهذا ما رجحه ابن عاشور بقوله(٥٩): موقع الفاء صريحٌ في اتصال ما بعدها بما قبلها من الكلام على معنى التفريع والترتب والتسبب. فيجيء على هذا القول: إن السورة مكية بأجمعها أن يكون المراد بالمصلين عين المراد بالذي يكذب بالدين ويدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين.

وهكذا تجتمع صفات المكذّب من أول السورة إلى آخرها على نَفَسٍ واحد.

- وعلى هذا وصفهم بالمصلين تهكم بهم، والمراد عدمه، أي الذين لا يصلّون، أي ليسوا بالمسلمين، كقوله تعالى: **﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾** وقرينةُ التهكم وصفهم بـ **﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾**(٦٠)، وهي جديرة به لا تنفك عنه فالتكذيب أصل البلاء كله.

ب. الفاء رابطة لجواب شرط مقدّر:

فيتعلق الويل بالمصلين الموصوفين بكونهم عن صلاتهم ساهون، وما بعده فلا ارتباط له بما قبله ويكون المعنى: إذا أردت معرفة جزاء أهل النفاق في الصلاة وغيرها فويلٌ.........

أمّا على القول(٦١) بمدنيتها كاملة فيعني ذلك أنها نازلة من أولها في المنافقين وتجري عليهم الصفات المذكورة جميعها ومن ثمَّ فإنها –السورة– تحمل توبيخاً للمنافقين الكائنين في المدينة؛ كعبد الله بن أبيّ وأضرابه، وتكذيبهم بالدّين باعتبار باطنهم والعبرة على كلٍّ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالوعيد المذكور لمن اتصف بهذه الصفات.

على أن القول بمدنيتها كاملة أو بأن نصفها الآخر مدني إضافة إلى ما سبق لا يحتمل هذا الوعيد كله للمنافقين، إذ إنهم وإن اجتمعت فيهم الصفات المذمومة، لكنها لا تصل بهم إلى أن يكونوا منافقين خلص.

ومن المستبعد كذلك قول من تأولوا السهو عن الصلاة في الآية بأنه سهو في الصلاة، فليس السهو بخطيئة ولا منكر ينذر معه الساهي بـ (ويل) وكل مؤمن عرضة لأن يسهو في صلاته، فينجبر هذا السهو فيها بسجود السهو أو بالسنن والنوافل على ما هو مقرر في الفقه.

هذا وقد ثبت أن النبي ﷺ سهى في صلاته وسها عن صلاته كما ثبت في الصحيح.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾:

- استند كثير من المفسرين في بيان السورة مدنية أو أنَّ نصفها الثاني مدنّي إلى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾**[النساء: ١٤٢]، وأعتقد أن الأمر مختلف ههنا فالآية تتحدث عن حالة قيامهم إلى الصلاة لكونهم مصلين وشتان بين الأمرين؟!

- غير أنني أودُّ أن أُفسِّر معنى **(ساهون)** بالاستناد إلى الآيات ذات الصلة المباشرة بها:

- ففي سورة الأنعام: **﴿هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾** [الأنعام: ٩٢].
- وفي (المؤمنون): **﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾**[المؤمنون: ١-٢].
- وفي المعارج: **﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾** [المعار ج: ٢٣]. **﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾** [المعارج: ٣٤].

إذن حاصل الأمر أن المطلوب في الصلاة:

١. المحافظة عليها.
٢. الخشوع فيها.
٣. الدوام عليها.

والمحافظة عليها تشمل الأمرين: الخشوع والديمومة. ومن ثمَّ فإن السهو يعني نفي العناصر الثلاثة كلها.

- الدوام والخشوع والمحافظة، وليس هذا إلا سبب السهو أو اللهو عنها أو فيها.

قال ابن جرير بعد أن نقل العديد من الأقوال قال: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن معنى **(ساهون)**: أي لاهون يتغافلون عنها، وفي اللهو عنها والتشاغل بغيرها، وتضييعها أحياناً، وتضييع وقتها أخرى(٦٢).

وكان ابن كثير(٦٣) أكثر توضيحاً لمعنى (ساهون): **(هم عنها ساهون)**: إما عن فعلها بالكلية وإما بتأخيرها، وإما ساهون عن أركانها وشروطها وإما عن الخشوع فيها.

فاللفظ يشمل هذا كلّه، ولعلّ ما حمله على ذلك مراءاة الناس لا ابتغاء وجه الله.

هذا ما نجده اليوم وفي كل زمان من طغمة ظالمة يسوسون المسلمين ويستخفون بعقولهم فيحضرون لصلاة جامعة في عيد أو نحوه، وتسلّط عليهم (الكاميرات) وتلتقط لهم الصور وهم يصلون، ولربما يتظاهرون بالخشوع، وهم في حقيقة الأمر ساهون لاهون إنما هم يدجلون على الدهماء من الخلق، والرُّعاع من النّاس.

ورحم الله الشيخ محمد عبده[٦٤] فقد تنبَّه لهذا منْ قبل فقال: والجمهور الأعظم من النصارى واليهود والمشركين من كانوا في زمنه ﷺ كانوا يظنون أنهم يصدقون بالدين ولا يكذبون به وغرتهم صلاتهم وصيامهم.

ويبدو لي أنّ صيغة الجملة الاسمية **﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾**، تؤكد ما سبق؛ فهم دائمو السهو واللهو عن الصلاة وهذا الفعل راسخ متأصلٌ فيهم.. فكأنهم بالفعل لم يصلّوا ولم يكونوا من المصلين، وإن ظهروا مصلين أمام الناس فرياء وسمعة.

وتقترب الآية بما في صدورها من الوعيد: **﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾**، من قوله تعالى في سورة (مريم: ٥٩): **﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾**، وإضاعة الصلاة تركها بالكلية على ما رجحه ابن جرير ونقله ابن كثير، وتركها عمْداً قرين الكفر؛ ولذلك جاء التعقيب: **﴿إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾**[مريم: ٦٠].

فالوعيد في سورة مريم لمن أضاع الصلاة وتركها: **﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾** أي؛ خسراناً مؤكداً يوم القيامة، وقيل؛ وادٍ في جهنم بعيد القعر، خبيث الطعم؛ وقيل بئران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار.

والوعيد في سورة الماعون (فويلٌ). ويحسن هنا أن أنقل ملحوظة قيمة للراغب قال[٦٥]:

- من قال: (ويلٌ): وادٍ في جهنم، فإنه لم يُرد أنَّ ويلاً في اللغة هو موضوع لهذا، وإنما أراد من قال الله تعالى ذلك فيه استحق مَقرّاً من النار، وثبت ذلك له.
- والويل حلول الشّر وشّدَةِ الحُزن.
- (والويل): الهلاك والدمار.عن ابن عباس قال: الويل المشقة من العذاب، وقال الخليل بن أحمد: الويل شدة الشّر، وقال غيرة: الويل الحزن، وقال بعض النحاة: إنما جاز الابتداء بها وهي نكرة لأن فيها معنى الدعاء، والرفع فيها (ويلٌ) أجود في القرآن والكلام لأن المعنى قد ثبت لهم هذا.
- ونقل في معنى (ويل)[٦٦]:

١. (أنه واد في جهنم لو سّيرت فيه الجبال لماعت).
٢. (ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره).
٣. ويل (جبل في النار).

وهذه الأقوال الثلاثة عقّب عليها أبن كثير بأنها في غاية الغرابة والنكارة.

المطلب السابع

قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾

يهمنا هنا أن نتعرف إلى معنى الماعون لغةً، وفي أقوال المفسرين:

ذكر ابن منظور في معنى (الماعون) جملة من المعاني؛ هذا ملخصها[٦٧]:

- الماء بعينه وقد يستدلّ له بقول الحق سبحانه: **﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾**[المؤمنون: ٥٠]، باعتبار أن تجعل من المعين مفعولا من العيون. ومنهم من قال: إن الماعون المطر؛ لأنه يأتي رحمة من الله عفواً بغير علاج كما تعالج الآبار ونحوها.
- الزكاة على اعتبار فاعول من المعن؛ وهو الشيء القليل فسميت الزكاة بالشيء القليل لأنه يؤخذ من المال ربع عشرة، وهو قليل من كثير.
- المعروف عموماً لسهولته ويسره.
- الطاعة.
- إسقاط البيت؛ كالدلو والفأس والقِدْر والقصعة أو ما يستعار من قدوم وسفرة وشفرة.

- اسم جامع لمنافع البيت كالقِدْر ونحوه مما جرت العادة بعارفيه.
- الماعون أصله مَعونة والألَف يُعَوّضُ عن الهاء.
- قال ابن سيدة: وأراه ما انتفع به مما يأتي عفواً.

وختاماً فإنني أستطيع بعد دراسة الأقوال السابقة أن ألمح بينها قاسماً مشتركاً في غاية الوضوح وهو: المنفعة الجامعة بين اليسر والقلة مما يأتي سهلاً عفواً كما ذكر ابن سيده، قبل قليل.

وأعتقد أن هذا المعنى منسجم تمام الانسجام مع الصفات الست المذكورة في السورة –خاصة دعَّ اليتيم– وعدم الحضِّ على طعام المسكين.

فهم في غاية الشح والبخل، فهل نتوقع منهم أن يبذلوا شيئاً من الماعون والمعونة عفواً؟ كلاّ والله.. بل إنهم يمنعون كلَّ شيء حتى ولو كان قليلاً سهلاً كالماء ونحوه... والله إن الويل والهلكة جديرة بهم من كلّ وجه.

أما أقوال المفسرين فلم تخرج عما سبق.

فقد ذكر ابن جرير(٦٨): **(ويمنعون الماعون)** أي يمنعون الناس ما عندهم، وأصل الماعون من كل شيء منفعته، ويقال للماء النازل من السماء ماعون.

- واستحسن ابن كثير(٦٩) ما نقله عن عكرمة بأن رأس الماعون الزكاة، وأدناه المنخل والدلو والإبرة –قال ابن كثير: وهذا الذي قال عكرمة حسن، فإنه يشمل الأقوال كلّها، وترجع كلّها إلا شيء واحد وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة.
- ونقل البغوي عن عبد الله ابن مسعود ﷺ أن الماعون: الفأس والدلو والقدر وأشباه ذلك. وعقّب ابن حجر على هذه الرواية وما يتصل بها قال: قال الفرّاء: قال بعضهم إن الماعون المعروف كلّه، حتى ذكر القصعة والدّلو والفأس. ولعله أراد ابن مسعود، فإن الطبري أخرج من طريق سلمه بن كهيل عن أبي المغيرة: سأل رجل ابن عمر عن الماعون قال: المال الذي لا يؤدّي حقه، قال قلت: إن ابن مسعود يقول هو المتاع الذي يتعاطاه الناس بينهم، قال هو ما أقول لك. وأخرجه الحاكم أيضا وزاد في رواية أخرى عن ابن مسعود: هو الدّلو والقِدْر والفأس وكذا أخرجه أبو داوود والنسائي عن ابن مسعود بلفظ: (كنا نعّد الماعون على عهد الرسول ﷺ عاريةَ الدّلو والقدر) وإسناده صحيح إلى ابن مسعود(٧٠).

- وقيل الماعون: ما لا يحل منعه مثل: الماء والملح والنّار، وأضاف ابن الجوزي في زاد المسير الإبرة والقدّاحة، وما يكون في البيت من هذا النحّو.
- ورجح الفخر الرازي(٧١): أن الأولى حَمْل (الماعون) على كل طاعة يخفّ فعلها لأنها أكثر فائدة. ثم قال: قال المحققون في الملاءمة بين قوله (يراءون) وقوله: (ويمنعون الماعون) كأنه تعالى يقول: الصلاة لي والماعون للخْلق، فما يجب جْعله لي يعرضونه على الخْلق، وما هو للخلق يسترونه عنهم، فكأنه لا يُعامل الخلق والرب إلا على العكس.

نتائج الدراسة:

١. إن سورة الماعون سورة مكية خالصة، ومن السور المبكرة نزولاً.
٢. إن الإيمان باليوم الآخر والثواب والعقاب قاعدة رئيسة تصدر عنها الأعمال سلبا أو إيجابا.
٣. إن التكذيب بالجزاء أصل الشرور، وليس بعد الكفر والكذب ذنب.
٤. إن هذا الدّين يجمع بين الظاهر والباطن، بين العقيدة والشريعة، بين العبادات والمعاملات.
٥. إن الأخلاق تنبثق وتصدر من الإيمان بالله سبحانه.
٦. إن الصلاة مبناها على الخشوع والأدب مع الله سبحانه، وإنّ تركها والاستهزاء بها يستحق أعظم أنواع العقاب والوعيد.

والحمد لله رب العالمين،،،

الهوامش:

(١) انظر: الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود،

(ت ١٢٧٠هـ(، روح المعاني والسبع المثاني ٢٧٤/١٥، ط(١) ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) انظر: البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت ٢٥٦هـ(، **ترقيم فتح الباري**، الناشر، دار الشعب، القاهرة، ط١، (١٤٠٧هـ -١٩٨٧م)، الصحيح الجامع، كتاب بدء الوحي ٢١٩/٦..

(٣) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ٥٧٨/١٥، ط١، (١٤١٢هـ-١٩٩١م)، رئاسة المحاكم الشرعية.

(٤) انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، (ت ٩١١هـ(، **الإتقان في علوم القرآن**، ٤٧/١، ط(١٤٠٨هـ -١٩٨٠م)، المكتبة العصرية، بيروت.

(٥) **روح المعاني**، مرجع سابق، ٤٧٤/١٠.

(٦) **المصدر السابق**، ٤٧٤/١٠.

(٧) انظر: ابن عاشور، محمد الطاهرة، (١٩٧٣م)، **تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور** ٤٩٤/٣٠، ط(١١)، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ، بيروت. وانظر: البقاعي، برهان الدين أبي الحسين إبراهيم بن عمر، (ت ٨٨٥ هـ(، **نظم الدرر في تناسق الآيات والسور**، ج٢٢/٢٧٣، ط (١)، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٨) انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت ٩١١هـ(، **الدر المنثور في التفسير المأثور**، ٦٧٦/١١، طبعة ٤٢٤هـ -٢٠٠٣م، دار هجر، مصر.

(٩) انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، (ت ٩١١هـ(، **لباب النقول في أسباب النزول**، ٢٣٥، ط(١)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، حيث ذكر المصنّف روايتين: الأولى: (أرأيت الذي يكذب بالدين) قال مقاتل والكلبي: (نزلت في العاصي بن وائل السهمي)، الثانية: وقال ابن جريح: كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسبوع جزورين، فأتاه يقسم فسأله شيئاً، فقرعه بعصا، فأنزل الله تعالى (أرأيت الذي يكذب بالدين * فذلك الذي يدع اليتيم)، وكلا الروايتين مرسلتان كما أورده المحقق، وخرج بالنتيجة نفسها محقق آخرُ للكتاب وهو كمال بسيوني زغلول، ص ٤٩٣، ط(١) ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(١٠) انظر: دروزة، محمد عزّة، **التفسير الحديث** ١٨٠/١، ط(١)، ١٣٨١-١٩٦٢م، دار إحياء التراث العربي.

(١١) **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ٣٧/١. **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ٤٩٤/٣٠.

(١٢) انظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، (ت ٥٣٨هـ(، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ٨٠٨/٤، ط٢، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م. دار إحياء التراث العربي، بيروت وانظر: ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، (ت ٥٤٦هـ(**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ط(١)، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٥٢٧/٥، وانظر: الفخر الرازي أبو عبدالله محمد بن عمر بن حسين القرشي، (ت ٦٠٦هـ(**التفسير الكبير**، ٣٠١/١١، ط٣، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، دار إحياء التراث العربي، وانظر: عباس فضل حسن عباس، **إتقان البرهان في علوم القرآن**، ٤٠١/١، ط(١)، ١٩٩٧م، دار الفرقان، عمان.

(١٣) انظر: أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي، (ت ٧٥٤هـ(، **البحر المحيط في التفسير**، ٢٥٢/١٠، ط ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، دار الفكر، بيروت.

(١٤) انظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، (ت ٦٧١هـ(، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ١٤٣/١٠، ط(١)، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(١٥) انظر: مقبل بن هادي الوادعي، **الصحيح المسند من أسباب النزول**، ط(١)، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، دار القلم دمشق، وانظر: إبراهيم محمد العلي، **صحيح أسباب النزول**، ط(١)، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، دار ابن حزم، بيروت، وانظر: عصام بن عبد المحسن الحميدان، **الصحيح من أسباب النزول**، ط(١)، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، مكتبة المجتمع المملكة العربية السعودية.

(١٦) **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ٢١٠/٢٠، ط(١)، (١٩٦٤م-١٣٨٣هـ(، دار الكتب المصرية القاهرة، وانظر: **التسهيل لعلوم التنزيل**، مرجع سابق، ٢٦٥/١.

(١٧) انظر: **المحرر الوجيز**، مرجع سابق، ٦٢/٧، وانظر:

التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ١/٢٦٥٠.

(١٨) انظر: **التسهيل لعلوم التنزيل**، ١/٢٦٥٠.

(١٩) انظر: **التفسير الحديث**، مرجع سابق، ١/١٨٠.

(٢٠) **المصدر السابق**، ١/١٨٠.

(٢١) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ص(٢٨١)، ط (١٤٠٨هـ -١٩٨٨م)، دار الجيل، بيروت.

(٢٢) **المصدر السابق**، ص (٢٥٧).

(٢٣) **المصدر السابق**، ص (٧٧٠).

(٢٤) **المصدر السابق**، ص(٣٥٤).

(٢٥) **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ص(٣٥٤).

(٢٦) **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ص(٧٠٢).

(٢٧) **المصدر السابق**، ص(٧٦٨)و ص(٧٦٩).

(٢٨) **المصدر السابق**، ص(٧٦٨).

(٢٩) **المصدر السابق**، ص(٧٦٨).

(٣٠) **المصدر السابق**، ص(٧٦٩).

(٣١) انظر:ابن القيم، محمد بن ابي بكر، (ت ٧٥٢هـ(، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ١/٥٢٧، ٥٢٨، ط(٢)، ١٣٩٣هـ -١٩٧٣م.

(٣٢) انظر: **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ص(٤١٤).

(٣٣) **المصدر السابق**، ص(٤١٤).

(٣٤) **المصدر السابق**، ص(٣٤٠).

(٣٥) انظر: الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، (ت ٥٠٢هـ(، **المفردات في غريب القرآن**، ص(٢٨٨) ط(٢)، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، دار المعرفة، بيروت.

(٣٦) انظر: أبن كثير، إسماعيل بن عمر ضوْء بن كثير القرشي، (ت ٧٧٤هـ(**تفسير القرآن العظيم**، ٢/٣٣٩، ط(١) ١٤٢٢هـ -٢٠٠٢م، دار الفكر بيروت.

(٣٧) انظر: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت ١١٢٧هـ(**فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير**، ٢/٣٥١، ط(١)، ١٤٣١هـ- ١٩٩٢م، دار الحديث.

(٣٨) انظر: **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ٢/٣٤٠.

(٣٩) انظر: الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، **معارج التفكير ودقائق التدبير**، ١/٦٩٤، ط(١)، (١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م)، دار القلم، بيروت.

(٤٠) انظر: **المصدر السابق**، ١/٦٩٤.

(٤١) **المعجم المفهرس لألفاظ الكريم**، مرجع سابق، ص(٣٦٢).

(٤٢) **المصدر السابق**، ص(٣٦٢).

(٤٣) انظر: **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ٢/٣٥٠ بتصرف يسير جدا.

(٤٤) انظر: **المعجم المفهرس لألفاظ الكريم**، مرجع سابق، ص(٨٥٠).

(٤٥) انظر: **المصدر السابق**، ٨٥٠.

(٤٦) انظر: **المعجم المفهرس لألفاظ الكريم**، مرجع سابق، ص(٨٤٤).

(٤٧) انظر: **نظم الدرر في تناسق الآيات والسور**، مرجع سابق، ج٢٢/ ٢٧٥، ٢٧٦.

(٤٨) انظر: **المصدر السابق**، ج ٢٢/٢٧٦، ٢٧٧.

(٤٩) انظر: **نظم الدرر**، مرجع سابق، ١٥/٢٧٨، ٢٧٩.

(٥٠) انظر: ابن الجوزي، **زاد المسير، من علم التفسير**، ٦/١٩٤.

(٥١) انظر: أبو الحسين أحمد بن فارس، (ت ٣٩٥هـ(**معجم مقابيس اللغة**، ٢/٣٢٠ ط(١)، (١٤٠٠هـ-١٩٨٠م)، مطبعة مصطفى الحلبي.

(٥٢) انظر: ابن الجوزي، **زاد المسير**، ٦/١٩٤.

(٥٣) **تفسير التحرير والتنوير المعروف** مرجع سابق ٣٠/٤٩٥.

(٥٤) انظر: **التفسير الكبير للفخر الرازي**، مرجع سابق، ١١/٣٠٢-٣٠٣.

(٥٥) انظر: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، (ت ٩٥١هـ(، **تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج٩/٢٠٣.

(٥٦) انظر: **الكشاف**، مرجع سابق ٤/٨٠٩.

(٥٧) انظر: **التفسير الكبير للفخر الرازي**، مرجع سابق ١١/٣٠٣.

(٥٨) انظر: **البحر المحيط في التفسير**، مرجع سابق ١٠/٥٥٣.

(٥٩) انظر: **التحرير والتنوير** ٣٠، مرجع سابق /٤٩٧.

(٦٠) انظر: **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ٤٩٧/٣٠.

(٦١) انظر: القاسمي محمد جمال الدين (ت ١٣٣٢هـ(**تفسير المسمى محاسن التأويل**، ٤٩٠/٩، ط ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، دار الحديث القاهرة.

(٦٢) الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ(، **جامع البيان عن تأويل القرآن** ٦٦٣/٢٤، ط١، (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، دار هجر للطباعة والنشر.

(٦٣) **تفسير الطبري**، مرجع سابق، **تفسير القرآن الكريم**، مرجع سابق، ٢٠٧٧/٤.

(٦٤) انظر: محمد عبده، تفسير جزء عَمّ، ص ١٦٥.

(٦٥) انظر: **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص٥٥٠.

(٦٦) انظر:**تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ١١٦٩/٣-١١٧٠ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً**﴾[مريم: ٥٩].

(٦٧) انظر: ابن منظور، محمد بن مكرّم بن على بن أحمد، (ت ٧١١هـ(، **لسان العرب**، ١٤٧/١٣، ١٤٦، ط(٣)، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، دار التراث العربي، بيروت.

(٦٨) **تفسير الطبري**، مرجع سابق ٢٠٧٩/٤.

(٦٩) انظر: **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق ٢٠٧٨/٤.

(٧٠) هذا الحديث موقوف على ابن مسعود انظر: العجلوني، إسماعيل بن حماد (ت ١١٨٧هـ(، **كشف الخفاء**، ٤١٩/٢، تحقيق محمد يوسف، ط(١)، ٢٠٠٠م.

(٧١) انظر: **التفسير الكبير للفخر الرازي**، ٣٠٥/١١، مرجع سابق.